

تناقضات الحارس السجين : حسن فتح الباب

د. أحمد كُرَيْم بلال

ahmedkorimblal@yahoo.com

وَدَّعت مصرُ والعالمُ العربيُّ منذ أيام قلائل الشاعر المصريّ: حسن فتح الباب (1923م - 2015 م). وهو صوتٌ شعريٌّ من جيل الروّاد المؤسسين لحركة الشعر التفعيليّ في حقبة الخمسينيات من القرن الماضي.

وانتماء حسن فتح الباب لهذا الجيل الرائد لا يتوقف عند مجرد التجديد الشكليّ الثائر على أوزان الخليل؛ وإنما يتجاوز ذلك كلّهُ نحو التجديد الفني الذي تشكّلت من خلاله القصيدة الشعريّة من خلال رؤى فنيّة جديدة، في الصوغ والتركيب والبناء والتصوير، وبدت في مظهرٍ دراميّ بارز، تتجاوب فيه الرؤى والأصوات والصراعات. وقد كانت القصيدة (في الشعر العموديّ) في أغلب أحوالها قصيدة الصوت الغنائي المنفرد التي تعكس الرؤية الخاصة الذاتية للشاعر، أو تلك التي يرى الشاعر فيها العالم من خلال ذاته ومشاعره الخاصة المفرطة في الحساسية.

على أنّ تجربة حسن فتح الباب إنما هي تجربة شديدة الاتساع، تنطوي على جوانب شتى من الرؤى والموضوعات، فهو شاعر غزير الإبداع، أصدر خلال حياته الطويلة التي تجاوزت تسعين عامًا ما يزيد عن ستة عشر ديوانًا شعريًّا تنوعت بين الرومانسيّ، والدراميّ الموضوعيّ، ووظّفت فيها الكثير من التقنيات الفنيّة المهمّة ما بين استلهام التراث العربيّ القديم، وتوظيف الأسطورة الشعبيّة، واستخدام الرموز الكليّة والجزئيّة، وصولاً - في نهاية مسيرته الفنيّة - إلى القصيدة القصيرة جدًّا، أو ما يسمونه: (القصيدة الومضة)، تلك التي تحاول التعبير عن موضوعها بشكل شديد الإيجاز والتكثيف، أو هي - كما يصفها الشاعر نفسه - " محاولة للوصول إلى أقصى حالات الكثافة الشعورية وبأقل الكلمات، ومحاولة النفاذ إلى جوهر الأشياء بلغة بسيطة وصولاً للمعنى الذي يبتغيه" (1).

وهذا الإبداع المتميز - على الجانب البنائي والفني - يتواكب - من ناحية أخرى - مع تنوع شديد في الموضوعات - نفسها - ما بين الهموم الوطنيّة والقوميّة العربيّة التي تنعكس فيها الأحداث التاريخيّة برؤية شموليّة، ومعالجةٍ مختلفةٍ - قطعًا - عن معالجة شعر المناسبات التقليديّ، إضافةً إلى شغفه بالجوانب الفلسفيّة العميقة التي تطلُّ علينا من بين ثنايا الموضوعات دون أن يُعبّر عنها بشكلٍ تقريريّ مباشر، مثل: (ثنائيّة الوجود والعدم) أو تأملات في جوانب قصور الإنسان، وتطلعاته الدائمة إلى الحرّيّة والسعادة ... إلخ.

على أننا لن نستطيع - بطبيعة الحال - أن نتناول في هذه الدراسة الوجيزة كلّ الجوانب الإبداعية للشاعر الكبير: حسن فتح الباب. وقد اخترنا جانباً من الجوانب المهمة التي ظهرت في بداياته الشعرية، وظلت تتردد في دواوينه - فيما بعد - بأشكال مختلفة ومتنوعة، وهو ما عبر عنه الشاعر - نفسه - في تذييل لعنوان ديوانه: (أحداق الجياد) . وقد جاء في تذييل الديوان عبارة: (تنويعات على لحن الحارس السجين) (2) .

وهذا البناء المتناقض (الحارس / السجين) يُعبّر عن الصراع النفسي والأزمة الوجدانية التي تتملك الشاعر بسبب إحساسه أنه (لكونه ضابط شرطة) واحدٌ من حرس النظام الحاكم، مع أنه - في حقيقة الأمر - مُنتمٍ لتراب هذا الوطن، يشعر أنه واحدٌ من أبناءه الكادحين البسطاء، عاش حياة لا تختلف - في مجملها - عن حيوات كثير من فقراء المصريين. ثم اختار الالتحاق بكلية الشرطة (في مرحلة الليسانس) عندما تهيأت له الفرصة قوية ومُغرية " لا لما تُعري به شاباً بمستقبل مرموق يعوّض به بعض حرمانه وحسب، وإنما ليُدخل الفرحة على قلب أمه وهي امرأة تزلت ... ليفرحها حين تراه يرفل في زيّ الحكام، وتزين كتفيه النجوم" (3) .

على أن هذه الملابس العسكرية المُرصّعة بالنجوم تقفُ حاجزاً نفسياً كبيراً يحول دون انخراطه في الزمرة الوطنية من الفلاحين والعُمَّال والبسطاء الذين تلونت بشرتهم بتراب هذه الأرض المصرية، فالعلاقة بين المصريين (البسطاء والقرويين تحديداً) والشرطة علاقة ليست سويةً في أغلب الأوقات، " وقد اتسمت العلاقة بين الشرطة والمواطن على مر العصور بقدر كبير من الحساسية، نظراً لما تمثله الشرطة من تعبير صارخ عن السلطة التي تُمسك بزمام الأمور في الدولة، وما تملكه من أدوات الردع والعقاب " (4) .

وهذا المدخل النفسي التناقضي: (الحارس / السجين) إنما هو مدخل مهمٌ للغاية، لأنه - كما سبق أن ذكرنا - يتكرر كثيراً في شعره - فيما بعد - بأشكال متعددة، ومن ثمّ كان وصفنا للشاعر في عنوان الدراسة بأنه: (الشاعر المنتمي)، وأية ذلك أنّ تجربته الشعرية في مجملها محاولة انتماء للوطن من ناحية، وللإنسان بكل ما تحمله الإنسانية من عميق المعاني.

وسوف نلاحظ أنّ فكرة التناقض القارّة في هذا التكوين التصويري البديع: (الحارس / السجين) مُعبّر عنها بصور عديدة من التناقضات تبدو في شعر حسن فتح الباب:

تفاحتي مرّة

أنا رفيقُ الأرض ... شاعرُ الأمير (5) .

وهو يشعر - تبعاً لهذا التناقض - بأنه سجينٌ منصبه، فهو (حارس) في غير موضع الحراسة التي يرضاها ضميره الإنساني، ورؤيته الشعرية ذات الصبغة الإنسانية:

وكنتُ حارساً على مقاصر العراء

أحجبُ أعين الجماجم

أحْمِي مَرَاتِعَ الصَّقُورِ مِنْ تَطَّلُعِ الحَمَائِمِ (6)

وهذه التناقضات قد تبدو من خلال المقابلة التي توضح مدى المفارقة التصويرية والألم النفسي الملازم للبحث عن (موضع الانتماء)، والمفاضلة بين : (قوة المنتمي للسلطة) و (ضعف المنتمي للشعر والحب) :

فصرتُ عارياً بشعري... كاسياً بسوطهم
مصفاً بالحبّ قادراً بمقتهم (7).

إن هذه الثنائية تضع الشاعر في موقف حرج حين يحاول أن يُداهنَ (السلطة الحاكمة) وهو واحد منها، فالانتماء (للبسطاء) لن يجعله يقوم بمهمة : (الحارس) على نحو ما يبتغيه الجلاد الحاكم، ومن ثمّ يضع نفسه في موضع المواجهة التي يحاول كسبها من خلال (السخرية والتهمك):

والسيفُ بكفي وردةٌ عشقُ.
ماذا يُرضي جلاّدي الطيّبُ.
كي لا يغضبُ؟ (8) .

وعلى جانب آخر يبدو انتماء الشاعر للطبقة الحاكمة على أبرز ما يكون من خلال ملابسه العسكريّة، فهي - وفقاً لطبيعة مجتمعنا المصريّ المقموع - مبعث الهيبة في النفوس، وآلة التخويف والقهر. ولا يستطيع الشاعر - تبعاً لمقتضيات عمله - أن يتصلّ من هذا الملبس العسكريّ، كما أنه - على جانب آخر - لا يستطيع - أيضاً - أن يتصلّ من انتمائه لهؤلاء الكادحين. ولذا نجد (الملابس العسكريّة) بما تحمله من إحياءات ودلالات نفسية طرّفاً في عدة صور شعريّة تُعبّر عن هذه الجدليّة المتناقضة. فمن ناحية يحاول الشاعر أن يُبيدي حقيقة الانتماء عندما يجعل الملابس العسكريّة الصفراء نتاجاً مألوفاً للقري، ليقول: إنه واحد من الفلاحين أبناء القرية:

كانَ ردائي صُفرةً

نزفتها من عرقِ السنايل (9) .

إذا كانت (البذلة العسكريّة) ذات إحياءٍ بالرهبنة والقسوة والإخافة، فإن اختيار السنايل - على وجه التحديد - لكسر هذه الرهبنة لا يدل - وحسب - على الانتماء الريفيّ الذي يحاول الشاعر أن يقيمه مع (البسطاء). وإنما هي مصدر القوت الذي تقوم به الحياة، وهي أيضاً كما تبدو من خلال الموروث الديني مصدر العطاء والخير: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ ... الآية) (البقرة:261). إنه اختيار من الشاعر للكلمة الموحية التي لا تستمد تأثيرها الأسلوبي من أي صفة جوهريّة فيها؛ بل من ارتباطها بوسط أو عرف أسلوبي خاص " (10).

وفي موضع آخر يمزجُ الشاعر بين (طين القرى) و (رداءه العسكريّ المزركش) في صورة فريدة، ليغدو طين القرى الذي تلتطخت به (البذلة العسكريّة) تميمة أو طوق نجاة يتحقق من خلاله الانتماء بكل قوة:

تحلّ الطينُ الذي ارتوى أبي وإخوتي

منهُ وكانوا صامتينُ

لطخِ سترتي المزركشةُ

أنقذني من قبّعاتِ الدّم.

من قلعتي .. والقوقعة (11).

وعلى هذا النحو تبرزُ التناقضات التي تمور في نفس الشاعر مبرزة رؤية فكرية قوامها الانتماء بقوة إلى تراب هذا الوطن، وإلى إنسانه الفقير الكادح الريفّي البسيط، في محاولة دعوب منه لإثبات أن (لباسه العسكريّ) إنما هو حاجز وغلالة تحجب هذا الانتماء، تبعاً لما ترسخ في النفس المصريّة من رواسب الخوف والقهر من هذه البذلة العسكريّة. والشاعر - قطعاً - ليس صانع أفكار ومضامين، وإنما هو في المقام الأول صانع صور وتشكيلات فنيّة لهذه الأفكار والتصورات والمضامين، إنه يصنع " تشكيلاً يواجه تشكيلاً، تشكيلاً جمالياً يواجه تشكيلاً تاريخياً اجتماعياً. بناء يواجه بناء. إن الفنان يدرك واقعه جمالياً، والعمل الفني هو تشكيل جمالي لموقف ما من هذا الواقع" (12).

هوامش وتعليقات

- (1) من حوار أجراه : عثمان أنور لجريدة: (الجزيرة) السعودية مع الشاعر : حسن فتح الباب، نُشر في العدد 10902 ، الأحد 23 جمادى الأولى 1423 م = (2 / 8 / 2002 م) . ويمكن مراجعة ما يُعرفُ بقصيدة الومضة في ديوانه: (البلبل والجلاد) الذي يضم خمسين قصيدةً من هذا النوع. وهو من منشورات الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة 2002 م .
- (2) راجع ديوان: أحداق الجياد ضمن: الأعمال الكاملة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1998م، المجلد الأول (165 - 352) . وقد صدر هذا الديوان سنة 1990، وأغلب قصائده تعود إلى فترة السبعينيات، وبه قصيدتان كُتبتا في الخمسينيات، وسبق نشرهما في ديوانه الأول: فارس الأمل 1965م، وأعاد الشاعر نشرهما بعناوين جديدة في هذا الديوان.
- (3) من مقدّمة حسن فتح الباب لديوانه: سلة من محار 1995م ، ضمن الأعمال الكاملة، ص: 521) سبق ذكرها (.
- (4) من تقدمة الكاتب : سلامة أحمد سلامة لكتاب: إغراء السلطة المطلقة، بسمة عبد العزيز، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة 2012م . ص: 8
- (5) في قصيدة : الراية . ديوان: أحداق الجياد، ضمن: الأعمال الكاملة، ص: 189 (سبق ذكره) .

- (6) من قصيدة: الزويعة، السابق، ص: 192
- (7) من قصيدة: الزويعة، السابق، نفس الصفحة.
- (8) من قصيدة : الوديعة ، السابق: ص : 312
- (9) من قصيدة: الألوان، السابق: ص: 201
- (10) اتجاهات جديدة في علم الأسلوب، استيفن أولمان، ضمن: مجموعة من الدراسات ترجمها د: شكري عياد إلى العربية في كتابه : اتجاهات البحث الأسلوبي . اختيار وترجمة وإضافة / أصدقاء الكتاب . الحيزة . مصر ، الطبعة الثالثة، ص: 97
- (11) قصيدة: الجواد، الأعمال الكاملة: ص: 182
- (12) مدخل إلى علم الجمال الأدبي / عبد المنعم تليمة / دار الثقافة للطباعة والنشر / القاهرة . مصر 1978 م / ص 75